محاولة لفهم الصبي النوري

قصة بقلم : محمد الطاهر الضيفاوي

لم يكن النوري يعرف يومها ان الحياة ستغادره بعد ساعات معدودة .. وأن ذلك كاف ليحفر الحزن تجاعيد اخرى في وجوه اسرته وأهله ، وربما سكان القرية كلها .. ولأنه لم يكن يعرف ذلك ، فقد كان يقود ناقته نشوان طربا .. وكانت به رغبة في الغناء ..

كان الصيف ممطرا على غير عادته .. وكان الخريف على الابواب .. وكانت القرية في ذلك الصباح هادئة ، يمزق صمتها من حين لآخر ثغاء الاغنام وأصوات البهائم ، وكلب جرح ثم أقعى تحت لوزة وكف عن النباح وقد اختفت عنه ارنب خلف الحشائش .

أخرج النوري ناقته الى « الحصيدة » لترعى في « التسكرة » المخضرة في أعقاب المطر .. وكان منشرحا نشطا وكانت به رغبة في الغناء .. لكنه لم يكن يعرف اغاني كثيرة .. فهو صغير لم يتجاوز الثامنة من عمره .. ومع ذلك فقد ردد ما علق بذاكرته من الاغنية التي كان صبايا القرية يرددنها كثيرا .. ويألم لسماعها بعض أهالي القرية الذين عاشوا تفاصيلها :

بالله يا العين السودة ويا بربي واش الحالة

كان يؤديها بكل اتزان .. وكان صوته حنونا كأنه عاشر تفاصيل احداثها .. حتى خيل الي — وأنا بين نوم ويقظة شأن من عاد للريف في عطلة — أنني أسمع احدى مغنيات القرية المشهورات تغنيها بأسى الام التي فقدت ابنيها .. وبنشوة الام المعتزة بابنين سقطا بطلقة غدر من اجل الارض التي ولدا فيها ، وأبيا ان يرياها بين يدي ذلك الذي جاء ليحرم اهلها عطاءها .

وشقت الشمس طريقها في السماء موزعة اشعتها في أرجاء القرية : وظل النوري يغني ... وغمغم والدي وهو جالس يخيط ثيابه في ظل المعمورة : « كان زمان » .. وكانت تجاعيد وجهه كافية فعلا لأن تكشف سر ذلك الزمان .. زمان هذه الاغنية ...

كان زمانا .. ارتفعت فيه صيحات النساء ذعرا .. وتطاير الغبار من مسارب القرية تحت وقع سنابك خيل الجندرمة يوزعون الرعب في قلوب الاهالي ..

كان زمانا ، نقشت سياط الجندرمة تجاعيده على ظهور الاهالي الذين ظلوا مدة حيارى ما بين القبول والرفض .. وانتفضوا ..

تركوا الشيوخ والنساء والاطفال في الاكواخ .. ودبروا بعض سلاح .. واعتصموا « بهنشير القصور » و « جبل الخشم » و « جبل بو قرنين » و... كان زمان عرس الارض والرصاص .. وهرب النوم من جفون الجندرمة والجيوش والقادة .. ومادت بهم الارض والارائك والبدلات الرسمية ..

وكان زمانا للخيانات والمفاوضات والمؤامرات والاغتيالات .. وزغردت أم فقدت ابنيها بطلقة غدر في وضح النهار .. وغنت مغنية :

عيطلو في جنب الدار

وفرغ في قلبو العمار

وخلاه ملوح ومشى

وكان زمانا للأناشيد والزغاريد ودق الطبول فرحا بعودة الارض لأهلها ..

وكان زمانا للتملك .. والالقاب الجديدة والوعود ..

وها هي نفس الاغنية — رغم ما شابها من تفسخ مغني الاعراس — لم تفقد وقعها في قلوب الاهالي .

وهذا النوري ، الصبي ، يغنيها بصوته الطفلي الرقيق، دون ان يدرك انه طرح سؤالا محيرا امام سكان هذه القرية ...

شيء ما اذن ، حدث في الماضي ، ما كان يجب ان يحدث .. كل اهالي القرية يعرفون ذلك .. لكنهم ربما لم يصلوا الى تحديده بالضبط ، وظل شيئا غامضا ..

لكن النوري ، الصبي ، كان يغني ، لا لشيء ، الا ليذهب عنه التعب والوحدة وراء الناقة : وعندما رأى اخاه الصغير قادما يحمل له الفطور ، صمت ، وظل واقفا يرقبه : وعندما وصل اليه ، جلسا يأكلان « كسرة الشعير بالحليب » .. وعاد سعيد الى المعمورة لقضاء حاجة ، وعاد النوري الى الغناء .. الى نفس الاغنية ..

وكان النوري والده قد خرج الى شجيرات اللوز القليلة التي زرعها ظاهر المعمورة وبدأ يعزق تربتها ليقطع عنها الحشائش : وفي كل قطعة أرض ، كان هنالك احد السكان محني الظهر على الارض والفؤوس تشق طريقها في التراب .. وكان الصبيان كل وراء نعاجه الخمس او ناقته او حماره ..

وخلت ثنايا القرية ومساربها الا من بعض تلاميذ الثانوية والعالي وبعض الموظفين الصغار الذين جاؤوا لقضاء عطلتهم السنوية ، يقفون من حين لاخر ليلتحق بهم هذا او ذاك من أصدقائهم ويتجهون جماعة الى ساحة المدرسة ليلعبوا الكرة او الى حانوت عمر او غيره ليلعبوا الورق او يتبادلوا احاديث عن مشاريع الزواج والبناء .. وكلهم في نظر الاهالي جزء من ذلك السؤال المحير .. لقد

دخلوا في ذكرى ذلك الزمان .. عندما فتحت المدرسة ابوابها ، وجاء اكثر من مسؤول خطب عن اهمية التعليم واستدل بأكثر من آية قرآنية وبأكثر من حديث نبوي .. وحمل كل ابنه الذي بلغ السادسة من عمره الى المدرسة ، وبعضهم حمل ابنته البكر ..

وقفنا يومها امام الاقسام الثلاثة التي تكون المدرسة في صفين .. وكان اكثرنا حافي القدمين .. وبعضنا كان ببدلته الجديدة يحمل محفظة .. وبعضنا بكي لجهله ما ينتظره في هذا العالم الغريب ، عالم المدرسة ..

ومن يومها ، ظهرت امامنا وأمام آبائنا اشياء كثيرة .. تسجيل هذا ورفض الآخر في قائمة المستحقين للكتب المدرسية واللباس الذي كان يوزع سنويا على المدارس.. قبول هذا ورفض الآخر في « كنتينة » المدرسة وحليب الصباح .. الاعداد .. عصا المعلم .. وقبل ذلك كله وبعده النجاح ، وما يمثله لدى الاباء من حلم الرفاهية ، وقهر الفقر .. وبعض اهالي القرية ، اقام ، عند نجاح ابنه في الشهادة الابتدائية ، عرسا او زردة سنوية لاحد أولياء الله الصالحين في الجهة .. وكل اب كان ينتظر من نجاح ابنه اشياء كثيرة ، ويبني احلاما غاية في الدقة ..

وتعلمنا القراءة والكتابة .. وحفظنا عن ظهر قلب سور القرآن القصيرة ، وبعض الاحاديث النبوية وبعض الاناشيد .. وبعضنا اضطره أقاربه الى فك رموز رسائل الاهالي الذين هاجروا الى الشمال الغربي ، « افريقيا » كما كنا نسميها ، جريا وراء الرزق في مواسم الحصاد ..

وقرأنا تاريخ الابطال الذين بنوا مجد بلادنا والبلاد الاخرى .. عقبة بن نافع يفتتح افريقيا ويبني فيها مسجدا رأينا صورته في غلاف كتاب التاريخ في سنتنا الخامسة ... وطارق بن زياد يفتتح الاندلس ... وكريستوف كلومب يكتشف امريكيا . وآخر يوحد دولا ... وبعضنا تأثر بهم ... وبعضنا حفظ عن ظهر قلب خطبة طارق بن زياد ...

ومرت سنون طويلة وأهالي القرية ينتظرون تحقيق أحلامهم ... لكن اشياء اخرى حدثت ربما لم تكن في الحسبان .. فمن نجح في الابتدائية لم ينجح في الثانوية .. وحتى في الابتدائية ، في مدرسة القرية ، بدأت نسبة النجاح تتضاءل عاما بعد عام .. واكثرية الصبيان تجاوزوا السن القانونية للدراسة ولم ينجحوا .. وها كل زاد القرية الآن حفنة من الموظفين الصغار .. أكثرهم لا يعرف شيئا أكثر من ابطال كرة القدم والملاكمة ، ومشروع زواج .. وبعضهم — وهو نادر جدا — يعرف الان بطرقه الخاصة ان عقبة بن نافع لم ينقل الاحجار على ظهره من السلسلة الجبلية البعيدة الى ذلك السهل الذي سمي «القيروان» .. وأن طارق بن زياد كان قائد جيش لا أكثر ولا أقل ... وأن امريكا كانت عامرة بالهنود الحمر .. يعيشون فيها حياتهم .. وفوجئوا ذات يوم بأناس بيض انيقين .. واعترتهم الدهشة .. ثم سيقوا بالسياط الى مناجم الذهب التي تضمها أرضهم .. وانما درس في القسم كل هذه الاشياء بتلك الطريقة لامر ما في نفس يعقوب ..

وكل هؤلاء الموظفين الصغار يعيشون في ذاكرة القرية ، جزءا من حياة ذلك الزمان ، وجزءا من حياة اليوم ..

شيء ما اذن حدث في الماضي ، ما كان يجب ان يحدث .. كل أهالي القرية يعرفون ذلك .. وبعض من فقد ابنا او قريبا زمن الفواجع ، يعرف الآن ان نهر الدم الذي جرى غزيرا يومها ، قد جرف في مجراه شجيرات اللوز الصغيرة عوض الطحالب ، وصب في أرض رملية لا تخصب او ربما في مستنقع ...

هذا اذن النوي ، احد سكان القرية ، هذا النوي والد النوري .. ادخل ابنته البكر المدرسة ، ولم تنجح .. وأدخل بعدها ابنه الفتحي ، وها طالت امامه الطريق .. وهو الى الان لم يحلم بوقوف الفتحي معلما في مدرسة القرية ، يدرس جيلا جديدا ، ويذهب عنه هو الفقر والخصاصة .. وها هو الان يفتح المذياع في القيلولة ليسمع حديثا منمقا حول ارتفاع مستوى التعليم،وبالضرورة ضعف مرتب المعلمين والموظفين الصغار .. ولذلك فقد أصابه اليأس ككل سكان القرية ، ولم يعد يفكر في ادخال بقية ابنائه الى المدرسة ..

وعندما جلست قربه تحت اللوزة — وكنت احاول اقناعه بضرورة تمكن النوري من فرصة التعليم قبل فوات الاوان — كان النوري واقفا ، في الشمس ، وراء الناقة ، يغني نفس الاغنية ..

وهذا النوري ، ابنه ، واحد من صبيان القرية الذين بلغوا وتجاوزوا سن الدراسة وراء النعاج الخمس او الناقة في أحسن الظروف ، وراء الحمار في اسواها .. كان واقفا في الشمس ، وراء الناقة ، يغني ، ليذهب عنه التعب والوحدة ، دون ان يدرك انه وضع سؤالا محيرا أمام سكان القرية ..

وعندما اشتد الحر ساق الناقة واوثق رباطها في مكانها المعتاد ودخل المعمورة ...

كان يحس بألم في رأسه ... ونادوه للغداء فابى ... وفرشت له امه الحصير .. واقنعته بان الامر لا يعدو ان يكون تعبا وان عليه ان ينام قليلا ليرتاح .. وتمدد مثاقلا ، وغفا مدة ، ثم اشتد به الالم واحمرت عيناه ، وبكى ، وقالت امه انه مرض قديم لازمه منذ الصغر .. فقد ولدته في موسم الحصاد ، وكانت تحمله معها الى « الحصيدة » وتضعه « في غمار حلة » وعندما يبكي ، كانت ترضعه في الشمس ، وتعود الى العمل .. وجرت الى « صندوق الدبش » وأخرجت منه « موس لام » ثم ذهبت الى « معمورة الطياب » وعادت « برأس بصل » في يدها .. وازداد النوري ذعرا خوفا من « الشلاط » لكن والده اقنعه بأن لا داعي للخوف ، وأمسك به من يديه ، وسال الدم احمر قانيا من جبهته .. وأغمي عليه بعد ذلك ..

وكان لا بد من نقله الى المستشفى الذي يبعد عن القرية ثلاثين كيلومترا تقريبا .. وكان لا بد من ارسال الفتحي أخيه ومختار ابن عمه الى « جماعة الكوامين » ليتفضل أحدهم بنقله الى هناك ، وبمقابل طبعا ..

وقال « ولد الكبران » أن « الكميون ماشي لصفاقس هاز عبايا لوز »

وقال «ولد بن قمرة» ان «الكميون ماشي للشراردة باش يجيب عبايا دلاع »

وقال « ولد الحاج صالح » ان « الكميون ماشي للهورية باش يجيب عروسة »

وقال « ولد الاحمر » ان الكميون ماشي لنصرالله هاز عبايا علف »

وكل وجد سببا ..

ومع المغيب ، تصاعد البكاء ونباح الكلاب من أرجاء القرية ، وتجمع شيئا فشيئا في بيت النوي .. ومن وصل متأخرا من الرجال ، وقف جنب النوي مبهوتا ... وظلوا يسألونه عن تفاصيل هذا الموت المفاجيء .. وكان النوي ، وقد انحفر الحزن في تجاعيد وجهه يتحدث بصوت مخنوق عن النوري ، كيف كان يغني وراء الناقة صبيحتها ، وعن مرضه القديم ، و « جماعة الكوامين » ..

ومسح عمدة القرية واقفا بطنه ، ولفظ كلمات التعازي المعروفة ، وآيات بينات من كتاب الله ، واختفى ..

وبعض الحاضرين سأل النوي عن الاغنية التي غناها النوري .. وانحفرت ذكرى الاغنية من جديد في تجاعيد الوجوه ، وبعض الاهالي ، ادرك ان موت الصبي النوري فصل آخر من كتاب تاريخ القرية الذي لم يكتب بعد ، وان « جماعة الكوامين » جزء من ذلك السؤال الكبير الذي طرحه النوري ، دون ان يدري : .. وانه لا بد من الاجابة عن كل تلك الاشياء يوما ما ...

تونس **محمد الطاهر الضيفاوي**

هذه الاغنية .. ارتجلتها مغنية بدوية من الوسط التونسي في مأتم المناضلين الوطنين الطاهر وعلي أولاد مفوز سنة ١٩٥٢ . الا انها شوهت فيما بعد ... ولا ذكر للمناضلين الان .

شركة خياط للكتب والنشر (ش.م.ل)

٩٢ ــ ٩٤ شارع بلس ــ ص.ب ٦٠٩١
بيروت ــ لبنان تلفون ٣٤٤٩٩٨
يسرها ان تقدم
الموسوعتين الكبيرتين

موسوعة الشعر العربي

الشعر العربي في شتى عصوره ومناطقه منذ العهد الجاهلي حتى عهد النهضة العربية الحديثة

٢١٥ شاعرا من العصر الجاهلي
٩٠ شاعرا من العصر المخضرم
٢٤٥ شاعرا من العصر الاموي
٥٢٤ شاعرا من العصر العباسي
٢٧٠ شاعرا من العصر الاندلسي
٤٣٠ شاعرا من عصور الانحطاط
٢٩٢ شاعرا من عصر النهضة العربية
شعراء عديدون من العصر الحديث

دراسات قيمة عن كل شاعر ، حياته ، بيئته ، شعره، عرض مشوق لافكار الشاعر وأغراضه ومقاصده .

في ٣٢ مجلدا ضخما تضم الشعرالعربي قديمه وحديثه، كل مجلد يقع في ٦٥٠ صفحة من القطع المتوسط .

ديوان الشعر العربي كله بين يديك في مجموعة واحدة تصدر اجزاؤها تباعا .

●

موسوعة الفن العربي

... الفن والتزيين وهندسة الماضي المعمارية في ٢٠٠ لوحة اكثر من نصفها بالالوان، تضمها ثلاثةمجلدات كبيرة ، أصدرتها مكتبة خياط للكتب والنشر في بيروت وباريس ، وهي اجمل هدية عن الفن الاسلامي ، من تصوير وتصميم « بريس دافين » الذي كان قد درس طوال اعوام مظاهر الفن العربي ، ليخرج هذه الموسوعة عن اجمل آثار العالم الاسلامي .

تحفة رائعة تزين مكتبة بيتك او مكتبك ، وتصور ادق ما توصل اليه الرسامون والمزخرفون والنقاشون الاسلاميون والعرب في العصور الماضية .

●

اطلب الموسوعتين من شركة خياط للكتب والنشر ، شارع بلس بيروت ، او من فرعها في باريس :
Les Editions KHAYAT 25, Rue Berne
75008 PARIS Tél : 293 - 68 - 33